هموم شعرية

أن نبدأ من الأرض التي نقف عليها

عيسى حسن الياسري

تقف هذه الزاوية مع شاعر عربي في علاقته مع قارئه وخصوصيات صنعته، ولا سيما واقع نشر الشعر العربي المعاصر ومقروئيته. «يُضيِّعُ الشاعرُ طَريقَ العودة الى منزل الشِعر عندما يتخيّل نفسهُ انّهُ كبر»، يقول الشاعر العراقي لـ «العربي الجديد»

مولاريال ـ **العربي الجديد**

■ ما الهاجس الذي يشغلك في ظل ما يجري من عدوانٍ إبادةٍ على غزّة؟

وهل هناك من هاجس مُغذٍّب كما هو الحال غنا يحدثُ في غَزّة الباسلة؛ من إبادة جماعيّة لم تشهد لها مثيلاً أكثر الحروب وحشيةً، اشلاءُ الأطفال والنساء والشيوخ تتناثر فوق الأنقاض وتحت الأنقاض، الغُمران يُسَوّى بالأرض، الأشجار والحقول وحتى المقابر تُجرَف وتُحرق، والأكثرُ فجيعةً من هذا أن يقف حُكّام العرب والمسلمين متفرّجين، بل وداعمين لا سيما من طبّعوا مع المحتل، أمّا الشعوب العربيّة فهي إمّا غائبة أو مغيّبة، وحتّى ما يُكتب عن هذه الماساة الإنسانيّة تدير له دور النشر العربية ظهورها، ما يُعزّينا أنّ مقاومي غَزّة الذين كسروا كبرياء أكثر الجيوش المحتلّة قوةً وبطشًا، ما زالوا ومنذ عشرة شهور حتى الآن يواصلون صنع ملحمتهم البطوليّة، وها هو العالم يستيقظ وكلّه يهتف بالحريّة لفلسطين، وليس بعيداً أبداً أنْ تُشرق الشمسُ وأنّ الثوّار سينتصرون. هذا هو الدرس الذي تعلمناه من الشعوب التي ناضلت طويلاً من أجل تحرير أوطانها وتُوّج نِضالها بالنصر.

■ وهل تعتبر نفسك شاعراً مقروءاً؟

قُرّائي جَميع الذين امّنوا بالحرية، وامّنوا بالإنسان السيّد والحُر، ومن حلموا بعالمٍ تَجلس فيه العائلة الإنسانيّة أديانًا ومذاهب وأعراقًا حول طبقٍ واحد، حيثُ يتقاسمون رغيفَ الخُبز، وقدحَ الماء، قُرّائي مَنْ امنوا بالمحبّة دينًا وبالسلام رسالة، وقُرّائي همْ المُهمّشون والمنسيون، وكُل الناس البسطاء، ومنْ أغفلتْ في أحضان اروَاحهم أكثر منْ سكين، وقُرّائي هم مَنْ يُقدّمون للحياة أغنية عذبة، وقصيدة شعر صافية كما ينبوع صاف، إن وجد هؤلاء فأنا لي قُرّاء كُثر، وإن لمْ يوجدوا فلا أحد يقرؤني؛ لأنّني لا اكتبُ شيئًا خارج عالمي هذا.

■ كيف هي علاقتك مع الناشر، هل لديك ناشر وهل هو الناشر الذي تحلم به لشعرك؟

عندما بدأتُ النشرَ كانتْ «دار الشؤون الثقافيّة في بغداد»، هي الدار التي تبنّت إصدار مجموعاتي الست التي صدرت في العراق ما بين 1973 – 1996، كان يقفُ على راس هذه الدار مبدعون وخبراءُ من كبار نُقادنا وشعرائنا ومفكرينا، رحم الله منْ رحلوا منهم، وامد الله في اعمار من تبقوا أحياءً حيث ضاق عليهم حضنُ الوطن، وفتحت لهم المنافي الغريبة ابوابها. بعد مغادرتي العراق اختَفتْ أكثرُ من دار نشر، طبع مجموعاتي الشعريّة، واهم هذه الدور «المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر» في بيروت، والتي طبعت أعمالي الشعريّة في ثلاثة مجلدات، والعديد من الكتب النّقديّة التي وضعت عن تجربتي.

■ كيف تنظر إلى النشر في المجلات والجرائد والمواقع الالكترونية؟

هناك مواقع جادة يُشرف عليها مبدعون كبار مثل موقع «مجلة الكلمة»، و«الحوار المتمدن»، و«الناقد العراقي» الذي أغلق بعد رحيل مؤسّسه الناقد «د. حسين سرمك حسن» وموقع «جهة الشعر» الذي توقف أيضاً وغيرها، وهناك مجلّات مهمة تحولت من ورقية إلى إلكترونيّة بسبب نقص الموارد، لكنّ الأعم الأغلب ممّا يُنشر في بعض المجلات الإلكترونيّة والمواقع تغلب عليه الفوضى؛ بسبب سهولة نشر ما يُرسل إلى تلك المواقع التي لا تلتزم بالمعايير الإبداعية، وتسودها مجاملات من ينشرون عليها لبعضهم البعض. إنّ الكثير ممّا يُنشر الآن بعيد عن النضج الفنّي والابداعي.

■ هل تنشر شعرك على وسائل التواصل، وكيف ترى تأثير ذلك في كتابتك أو كتابة زملائك ممّن ينشرون شعرهم على وسائل التواصل؟

لم أنشر في وسائل التواصل الاجتماعي، فأنا ليس لي حسابٌ على أيّ من هذه الوسائل، حتى صفحتي على «الفيسبوك»، أغلقتها منذ سنين. في أوقاتٍ متباعدةٍ جدًا كنتُ أنشر في بعض المواقع، الآن ما عادت مشاغب الشيخوخة وظروفي الصحية تسمح لي بذلك، شيء جَيّد أن يَنشر المبدع في مواقع رصينة حتى لا يُنسى. حقًا أقول إنّني فوجئتُ عندما وصلت إليّ رسالتكم، اعتقدتُ أنّ الجيل الشاب ما عاد يتذكرني.

عيسى حسن الياسري

عندما نكتبُ الشِّعر نتركُ المخيّلة والحَدس وحدهما يشتغلان

ما يُعزّينا أنّ مقاومي غزّة يواصلون صنع ملحمتهم البطوليّة

■ من هو قارئ الشعر العربي اليوم في رأيك؟

بكلّ أسفٍ أقول إنّ قُرّاء الشِّعر قد انحسر عددهم بسبب ضَعف معظم ما يُنشر، وابتعاده عن هموم الناس، إضافةً إلى المتاعب الحياتيّة اليوميّة بالغة الصعوبة التي أبعدت الإنسان عن القِراءة والمُتابعة، ما أراهُ الآن هو أنّ ليس هناك من رقابةٍ فنّيّة على النشر، ولا توجد مواصفات إبداعيّة يُشترط توفرها فيمن يتقدّمُ للانتماء لاتّحادات الأدباء، والكثير ممّن ينتمون الآن لهذه الاتحادات ليسوا جديرين بهذا، وإنّما يُقبلون فيها لأغراض ليست ثقافية.

■ هل توافق على أن الشعر المترجم هو اليوم أكثر مقروئية من الشعر العربي، ولماذا؟

ليسَ كلّ ما يترجمُ الآنَ هو شِعرٌ جيد، كما أنّ الشِّعر العالميّ الجديد ابتعد عن معالجة هموم الإنسان ومتاعبه، ولم يَعُد يتناول موضوعات كبرى كما كان عليه في القرون الوسطى وحتى منتصف القرن العشرين، حيث برز شعراء أسّسوا لمدارس شعريةٍ مُهمة، وتَعهّد ترجمتهم مترجمون عرب ومستعربون مُختصون بترجمة الشعر، ونحن اليوم عندما نريد أن نقرأ شِعرًا مُؤثّرًا نعود إلى شعرائنا في جميع عصور الشعر العربيّ وحتى شعراء الريادة ومن جاء بعدهم. قُرّاء الشعر ينحسرون حتى في العالم وليس في الوطن العربيّ فحسب، وهذا الانحسارُ يُشكّل أزمةً روحيّةً تُجرّد الإنسانَ من إنسانيّته، الشِّعرُ هو روح الإنسان والمعبّر عن قضاياه المصيريّة.

■ ما هي مزايا الشعر العربي الأساسية وما هي نقاط ضعفه؟

لا أحدَ يمتلكُ حقّ وضع قوانينَ أو توصيفًا للشعر، نستطيعُ أنْ نُمارس هذا مع أيّ جنس إبداعيّ إلّا الشِّعر، الشعرُ عالم خاص يؤسّسُ مشروعه فنًا وموضوعًا وفقَ حضور الموهبة ونُضج التجربة الحياتيّة التي تتجاوزُ الخاص إلى العام، ويحتاج إلى الثقافة الموسوعية وأن نبدأ من الأرض التي نقف عليها وصولًا لجميع ثقافات العالم، وعندما نكتبُ الشعر نتركُ المخيّلة والحَدس وحدهما يشتغلان، بَعيدًا عن أيّة قصديّة في كتابة النّص الشعريّ لأنّها لا تُنتجُ شِعرًا، وأعتقدُ أنّ هذه هي نقطة الضعف التي يُعاني منها شعرنا العربيّ اليوم.

بطاقة

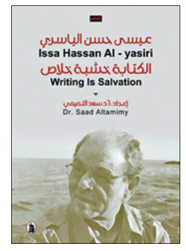

شاعر عراقي من مواليد عام 1942 في احدى قرى محافظة ميسان، تخرّج من دار المعلّمين في مدينة العمارة. انتقل الى بغداد عام 1972 واشتغل في التعليم والإذاعة والصحافة الادبيّة. غادر العراق عام 1998 ووصل الى كندا عام 2001، وما زال يُقيم فيها. صدرت اعماله الشعرية في ثلاثة مجلدات، ومن دواوينه: «العبور الى مدن الفرح» (1973)، «فصول في رحلة طائر الجنوب» (1976)، «سماء جنوبيّة» (1979)، «لثاء المراعي» (1992).

كتاب

إنزو ترافيرسو السردية الصهيونية وأكاذيبها

غزّة أمام التاريخ

يقدّم المفكر الإيطالي نصاً سياسياً ينطلق فيه من مفارقة أنّ «إسرائيل»، بينما تمارس الإبادة الجماعية في غزّة، تقدّم نفسها ضحية «لأكبر مذبحة في التاريخ»

روما ـ **العربي الجديد**

هل تدمير غزّة هو نتيجة لهجوم 7 تشرين الأول/ أكتوبر، أم أنّه جزء من عملية طويلة من القمع والاستئصال والإبادة والاحتلال؟ هل يحقّ للشعب الفلسطيني مقاومة الاحتلال؟ وهل الحديث عن الإبادة الجماعية هو معاداة للسامية؟

في كتابه الصادر مؤخراً عن دار نشر «لا تيرزا»، بعنوان «غزّة أمام التاريخ»، يحاول المفكّر الإيطالي إنزو ترافيرسو Enzo Traverso تقديم أجوبة مختلفة عن تلك التي المهيمنة في الغرب؛ حيث توصف «إسرائيل» بأنّها جزيرة «الديمقراطية»، وحماس بأنّها «جيش وحشي من سكّان الرمال».

يقدّم المفكر الإيطالي نصاً سياسياً موجزاً يتناول فيه كيفية بناء مواقف الجلادين والضحايا. نقطة البداية عنده هي المشهد المتناقض المتمثّل في أنّ «إسرائيل»، بينما تدمّر غزّة وتمارس إبادة جماعية فيها، تقدّم نفسها ضحية «لأكبر مذبحة في التاريخ منذ المحرقة». وبما أنّ المحرقة هي مرجع دائم للإسرائيليّين، فإن ترافيرسو يأخذ بعض المقارنات بالحرب العالمية الثانية ويتحدّث عن «نوع من محاكمات نورمبرغ العكسية» حيث لا يتمّ الحكم على الجرائم التي ارتكبها النازيون، بل على الفظائع التي ارتكبها الحلفاء. وبهذا المعنى، يعيد إلى الأذهان الجدل الألماني حول الماضي الهتلري، حيث عرّف المؤرخ المحافظ إرنست نولت الجرائم النازية بأنها «رد فعل» على تهديد البلشفية، ومن ثم كان الضحايا هم الألمان، وليس اليهود. وبعد عرض هذا التشابه، يشير ترافيرسو إلى أنه لتبرير جرائمه، يقوم الاستعمار الصهيوني بالدعاية بأن الضحايا هم الإسرائيليون، وليس الشعب الفلسطيني.

وفي مواجهة هذا التحريف والانقلاب لموقف الضحية والجاني، يتبنّى المفكر الإيطالي تعريف الإبادة الجماعية الذي حدّدته اتفاقية الأمم المتحدة لعام 1948، لتحديد ما يحدث في قطاع غزّة، حيث لا يتعلّق الأمر عنده بحرب بين جيشين، بل إنّه تدمير أحادي الاتجاه، مستمر ولا يرحم، ويهدف بمنهجية إلى القضاء على مجموعة من المراكز الحضرية التي يسكنها ما يقرب من مليوني إنسان فلسطين. إنّه منطق الإبادة الجماعية، وهو ما يقوم به جيش يملك آلة حرب وتكنولوجيا متقدّمة جداً.

وبعد ذلك، يتطرّق المؤلّف إلى آليات بناء الخطاب الذي يصدّر «إسرائيل» على أنّها «جزيرة ديمقراطية وسط محيط ظلامي من العالم العربي». هذا الخطاب السائد في الغرب، والذي تتبنّاه مؤسّسات السياسة والإعلام الغربيين يعود إلى القرن التاسع عشر، عندما ارتكب الغرب عمليات إبادة جماعية استعمارية باسم مهمته الحضارية، وحتى الآن لا يزال يقوم على افتراضات أساسية هي: «الحضارة» في مواجهة «الهمجية»، و«التقدم» في مواجهة «التخلف».

يكشف مفارقة دعم الغرب لإبادة جماعية باسم مهمته الحضارية

كذلك، يقوم هذا الخطاب الإعلامي والسياسي اليوم بربط ذكرى المحرقة تدريجياً بالدفاع عن «إسرائيل» والنضال ضد معاداة الصهيونية. أمّا الدعاية الصهيونية القائمة والمنتشرة فقد استطاعت أن تختزل التاريخ إلى صفحة بيضاء فكأن «كل شيء قد بدأ في 7 أكتوبر وليس باحتلال الأراضي الفلسطينية والتطهير العرقي منذ عام 1948. وفي الوقت نفسه تقول هذه الدعاية بإخفاء التخريب الصهيوني المستمر لأي اتفاق أو بديل غير المفروض من قبل «إسرائيل».

وبعد هذا يتطرق الكاتب بتوسع إلى موضوع معاداة السامية. فبينما تقتل آلة الحرب المدنيين الأبرياء، يصف سلاح الإعلام والسياسة كل ما من شأنه انتقاد «إسرائيل» بأنه «معاد للسامية»، مشيراً إلى أنه اتهام خطير بقدر ما هو كاذب، ولا سيّما أن العديد من الطلاب والأساتذة اليهود، وحتّى طلاب إسرائيليين، شاركوا في مظاهرات في مختلف بلدان العالم ضد المذبحة التي يتعرض لها الشعب الفلسطيني، وصولاً إلى نتيجة أن «معاداة السامية أصبحت سلاحاً» لـ«تجريم انتقاد إسرائيل».

يشكّل كتاب «غزّة أمام التاريخ»، نداءً قوياً ضد الأعمال الإجرامية التي تقوم بها «إسرائيل»، والتي تدعمها الدول الإمبريالية سياسياً ومادياً، ولا سيّما أن مؤلّفه هو مفكّر إيطالي شهير متخصص في مسألة اليهوديات والهولوكوست.

إنزو ترافيرسو

معرض

ألو بيروت قصة واحدة بألوان متعدّدة

حياة مدينة في 26 لوحة

يجمع المعرض المقام حتى منتصف الشهر المقبل في العاصمة اللبنانية، تجربة ستة وعشرين فناناً مع مدينة بيروت، في نسيج من السرديات والرؤى

بيروت ـ **العربي الجديد**

حظيت مدينة بيروت على مرّ التاريخ باهتمام الشعراء والكتّاب والفنانين التشكيليين والمصوّرين، فقد كانت موطن حضارات متعاقبة ومتصلة، تركت آثارها وشواهدها التاريخية التي جعلت منها مركزاً ثقافياً انعكس على مواقعها الأثرية وطريقة عمرانها التاريخي، كذلك جعل منها موقعها على البحر الأبيض المتوسط نقطة التقاء مختلف الثقافات، الأمر الذي ساهم في إثراء الحركة الثقافية والفكرية والأدبية.

كذلك شهدت المدينة الكثير من الحروب والانكسارات والانفجارات، بدءاً من الحرب الأهلية التي شرخت المدنية على جميع الأصعدة، مروراً بانفجار المرفأ، وصولاً إلى العدوان الإسرائيلي المتزامن مع الإبادة الجماعية في غزّة. مع هذا كله، ظلّت بيروت مدينة ساحرة افتتن بها كل من زارها وعاش فيها، عصية على الانكسار والهزيمة، واستطاعت أن تُلهم العديد من المبدعين من جميع أنحاء العالم. «ألو، بيروت» عنوان المعرض الجماعي المقام حالياً في غاليري «Chaos Arts» ببيروت، ويتواصل حتى الرابع عشر من أيلول/ سبتمبر المقبل، حيث يجمع تجربة ستة وعشرين فناناً لبنانياً وعالمياً مع المدينة التي طالما شكّلت جسراً ربط الثقافة الغربية بالثقافة العربية. يهدف المعرض إلى تكريم المدينة التي كانت مصدر إبداع وإلهام عدد لا يحصى من الأفراد. فمن خلال مجموعة متنوعة من التعبيرات الفنية، رسماً ونحتاً وتشكيلاً، يقدّم المعرض نسيجاً غنياً من السرديات والعواطف والرؤى، لفنانين لبنانيين وعالميين، عاشوا تفاصيل المدنية التي سحرتهم، فقرّروا التعبير عن ذلك.

تتناول اللوحات المشاركة والمختلفة من حيث الموضوع جمال المدينة متعدد الأوجه، فبيروت مدينة التناقضات، فيها تجتمع الثنائيات والسرديات المتنوعة: الوعد، الأمل، الإخفاق، النجاح، الإبداع، التناغم، المرارة، الهجرة، التمسك بالحجر، الوطن، الحرب؛ كلها موضوعات تتحاور في فضاء الأعمال المشاركة لتحكي قصة واحدة ولكن بألوان متعددة.

يشارك في المعرض كل من الفنانين: الفراتي جمعة، وبسام كيرلس، وداليا دخل الله، وجورج ضاهر، وإيوارد سهيد، وإريك الفارو، وفيديريكو بينتو شميت، وفريديريك إيمبرت، وفريدي فيلاميل، وهيفاء خضر، وحسني بيه، وهدى بعلبكي، وهرايز دياربكيريان، وجاكلين أوهانيان، ومي آمون، وميساك ترزيان، ونايفة نصار، ونايلة سيرجي، ونيكول سركيس، وأوبينا ماكاتا، وأسامة غندور، وسيرج أوريان، وسلوان إبراهيم، وياسر خطار، وبولاند نوفل، وزينة بكاري، حيث يقدّم كل واحد منهم رؤيته للمدينة وسرديته الخاصة معها، رغم التحولات كلها التي مرت بها. قد يبدو للوهلة الأولى طابع الفوضى هو المسيطر على المعرض لكثرة الأعمال المشاركة وتنوعها وازدحام الألوان في اللوحات، ولكن هذه الفوضى، وهذه الألوان نفسها، هي جزء من مدينة بيروت، وهي فوضى ألوان تتقاطع مع فنّ الحياة فيها، موفّرة مساحة ديناميكية للتعبير الثقافي والتأمل الفني.

تكريم مدينة كانت مصدر إبداع وإلهام عدد لا يحصى من الأفراد

«وحدة» لياسر خطار (من المعرض)

فعاليات

يُعرض عند السادسة والنصف من مساء اليوم الاربعاء، في «مؤسّسة عبد الحميد شومان» بعمّان، فيلم **10 أيام قبل الزفة** (2018) للمخرج اليمني **عمرو جمال**، ضمن فعاليات «ليالي الفيلم العربي». يتناول الفيلم الظروف والعقبات امام عريسين بقي على حفل زفافهما 10 أيام فقط، في ظلّ الحرب التي اندلعت في البلاد عام 2015.

ينظّم «مركز خليل السكاكيني الثقافي» في رام الله عند الخامسة من مساء اليوم الاربعاء فعالية تحت عنوان **رحلة مع وليد دقّة**، تتضمن انشطة متنوعة للاطفال واليافعين. الفعالية تختتم بعرض موسيقي مستمدّ من حكاية «سرّ الزيت» للكاتب الاسير (1961-2024) الذي استشهد في سجون الاحتلال في نيسان/ ابريل الماضي، فضلا عن **ورش رسم وتلوين وكتابة حول شخصية دقّة**.

تقدّم فرقة **لبث** المسرحية عند الثامنة والنصف من مساء اليوم الاربعاء، في استوديو الفرقة ببيروت، عرض **قصصكن عالمسرح**. العرض الذي يؤدّيه اربعة وعشرون ممثلا و تقوده الفنانة اللبنانية **فرح ورداني**، يعتمد على مشاركة قصص من حياة المتفرجين الشخصية، ومشاهدتها على المسرح ضمن قالب مرتجل.

تحت شعار **الأدب الشعبي ومقاومة الاستعمار**، تنطلق الاثنين، السادس والعشرين من الشهر الجاري، في مدينة قليبية بتونس، فعاليات الدورة الـ38 من المهرجان الوطني للاداء الشبّان التي تتواصل لثلاثة ايام. تشتمل التظاهرة على **ندوات وحوارات تضيء على صور المقاومة** في نماذج من الادب الشعبي التونسي والعربي.

ثقافة

في «طقوس الربيع»، أثار الموسيقي إيغور سترافنسكي، الذي تمر 140 عاماً على ميلاده، مسرح الشانزليزيه استياءً عند عرض العمل في 1913. كما أشعل فتيل ثورةٍ في الذوق العام، و تنبأ بالتغييرات التي ستلمّ في المجتمع، وبالتالي

نصوص الحياة والحرب من غزّة

ناصر رباح شاعر وروائي

أربعة أيام

صباح اليوم الأول.

بعد فجر السبت بساعة، استيقظنا على صوت إطلاق صواريخ. نحن نعرف الفرق تماماً بين صوت الصواريخ المنطلقة نحو الشرق وبين صوت ضربات الهاون التي لن تتجاوز كيلومترات معدودة، صوت الصواريخ يشبه إلى حد ما صوت جر سريع للوح من الصاج على أرض أسفلتية، وبالطبع نفرق بين صوت الرشاش العادي وصوت طلقات مضادات الطائرات، والجديد الذي صرنا نميزه حديثاً هو صوت الصاروخ التحذيري. صوت حاد ناعم سريع كأنه يثقب الأذن، لا يرج الهواء، ترسله طائرة الـF16 لتنبيه السكان بأن هذا المبنى تحديداً يجب إخلاؤه، تمهيداً للصاروخ الآخر الذي سيُرسَل بعد أقل من ربع ساعة، هذا سيكون صوته أكثر سماكة، بطيئاً وهادراً، وسيعقبه أيضاً صوت أكثر كثافة، متراخ بشكل يائس يهز الأرض المحيطة به، كما أنّ البيوت المجاورة ستهتز معه كشجر، وتعلو المكان سحابة من الغبار الأسود، هو صوت انهيار المنزل المُنذَر.

استيقظنا، الأولاد تناثروا خارج أسرتهم باتجاه مخرج البيت بعيداً عن النوافذ، قلنا: رشقة صواريخ. وبدأنا في العد. كنا غالباً ما نصل إلى رقم ما بين العشرة والعشرين في المرات السابقة، الحروب السابقة، التي ستصل إلى رقم ستة بعد قليل، هذه المرة تجاوز العدد أربعين وأكثر. قال الابن الجامعي وهو يتنهد: وهكذا انتهى العام الدراسي. يبدو أن القصة كبيرة.

بعد ساعة، اتضحت الأمور أكثر، توغل لعسكريين عبر السلك الحدودي، ذلك السلك الذي تصرخ فيه صافرات الانتباه لو حط عصفور عليه، الآن جميعنا في مدخل البناية، بيت الدرج البعيد عن النوافذ والقريب من الشارع، بدأ صوت الطائرات، والقذائف تنهمر، نسمعها بوضوح قريبة جداً، عائلتي وعائلة أخي في بيت الدرج، النساء بملابس إضافية وحجابات، الرجال والأولاد بما تيسر، جوارنا زجاجات الماء، الوثائق وجوازات السفر وشهادات الميلاد والأوراق المهمة في حقيبة قرب الباب، احتمالات قصف البيت واردة، احتمالات الخروج من البيت أكثر وضوحاً، الجيران يتصايحون لإخلاء البيوت، نحن قريبون من السلك الحدودي بمسافة كيلو متر واحد، حاسة السمع منتبهة بشكل متوتر، تتداخل الأصوات بحيث لا يمكن لخبراتنا السابقة تمييز أي شيء سوى جسامة الأمر. الصواريخ والطائرات، الهاونات والقذائف، القلق والخوف على وجوه الجميع، نحاول التماسك قبل أن يقرع باب البيت بشكل ملح. ثلاثة رجال بثياب عسكرية وأسلحة ودراجة نارية اندفعوا لينضموا إلينا، أحدهم مصاب بطلق ناري، الدماء تنزف منه وهو يتلوى، أحدهم يربط رباطاً على الجرح، والآخر يبدل ثيابه بأخرى مدنية، دقائق وغادروا، تركوا معداتهم لدينا في صرة تعادل كيس طحين.

نسيت حينها وتذكرت لاحقاً أنني لم أسمع صوت الزنانات «الدرونز» التي تقصف المسلحين في ظروف كهذه. صوت طنين نحلة هائلة، غادروا مدنيين فقط. الآن البيت أكثر تهديداً لدينا أسلحة، وربما قنابل، وربما جرت متابعة هؤلاء من قبل الزنانات. نعم نحن في خطر حقيقي وكبير، نحن منزل مستهدف الآن. تناسينا كل هذا، وبدأت معركتنا الخاصة: لا كهرباء ولا ماء والإنترنت يترنح. المخابز مكتظة بالطوابير، المواد الغذائية تنفد.... وماذا سنفعل بالأسلحة المخبأة؟

في المساء، يتصل خالد الناصري: ناصر كيف حالك؟ اكتب شهادتك عما يحدث؟ صحيفة عراقية ستخصص ملفاً خاصاً عن الموضوع. أمجنون أنت يا رجل!! بل من هو المجنون الذي سيطاوعك ويكتب.

ليلة اليوم التاسع عشر

أكثر ليلة تعرضت فيها المغازي للقصف، ضربات شديدة جداً ترج البيوت وتخلخل الهواء قبل أن نسمع صوت الانفجار، قصف متتابع لمدة ثلاث ساعات منذ الساعة التاسعة حتى منتصف الليل. لا نعرف بالضبط أين استهدفت الضربات، سمعنا أن إحداها استهدفت مخبز المغازي الوحيد، لم نسمع بعد صوت سيارات الإسعاف، ونظن بشكل كبير أنها مشغولة في أماكن أخرى، أو أن المستشفيات انهارت ولم تعد تعمل، كنا سمعنا عصر اليوم عن قصف مطحنة السلام، وقصف آخر لمول أبو دلال، مخبزنا الذي قُصف الليلة كنت مع أخي أمامه عصر اليوم، حاولنا الحصول على الخبز مدة ساعتين وفشلنا، واكتفينا بتصوير الطابور الذي امتد لمسافة تزيد عن ستين متراً خارج المخبز. ما زلنا بلا كهرباء منذ بداية الحرب، والماء المالح يصل لمدة ساعات قليلة، مرتين اسبوعياً، ويصل فقط الى الطابق الأول، يرفعه الأولاد إلى خزان الماء في الطابق الثالث بواسطة جالونات. يرفعونه وهم يتلفتون رعباً خشية استهدافهم، حيث قصف سطح جيراننا وهم يفعلون ذلك قبل يومين. زوجتي وابنتي في حالة ذعر وبكاء أغلب الوقت، القط الذي لدينا تغير سلوكه، وبدأنا نلاحظ سرقته طعامنا وانزواءه تحت الكراسي. اليوم مررت بجوار بيت صديقي أبي يعقوب، ما زال تحت الانقاض منذ أمس، استخرجوا جثث اثنين من أبنائه، وكذلك زوجته، أما هو فلم يستخرجوه بعد. المرة الأخيرة التي التقيته فيها كان عائداً من معبر إيريز، قال إنها المرة الخامسة التي يذهب فيها للبحث عن عمل ولا يجد، اليوم حدثني جارنا أبو علاء عما شاهده في مستشفى الأقصى أثناء استلام جثمان ابن أخيه عماد، عماد مدرس التربية الرياضية الذي استشهد وهو يشتري طعام العشاء لعائلته في النصيرات، قال لي أنه وصل إلى المستشفى وهو يصرخ، كانت أمعاؤه خارجاً، وتوفي بعدها. هذا ما عرفه من أحد الأطباء هناك، قال لي إنه شاهد أحد الشهداء، مجرد أشلاء في كيس حمله ممرض بيد واحدة ورفعه إلى جوار آخرين على شاحنة، وإنهم وقفوا جوار الشاحنة وصلّوا عليهم. قال لي إن قلبه تحجر، ولم يعد يشعر لا بوجع ولا بأسى.

مساء اليوم المئة وأحد عشر

ابنتي في حالة ولادة هذا اليوم، الساعة الخامسة عصراً، أخيراً وصلنا إلى مستشفى العودة بالنصيرات، السيارة قديمة ومتهالكة، وافق السائق بالكاد أن يحملنا إلى هناك، قال إن المكان خطير ومستهدف ومهدد بالقصف، خدمات الإسعاف فقط لنقل الجرحى والشهداء، وشارع صلاح الدين منطقة عسكرية ممنوعة، ولا بد من أن نسلك طريقاً طويلاً كي نصل. صهري استطاع توفير تلك السيارة وإقناع السائق بطريقته، الطريق البديل نفسه كانت قد أصابته عدة قذائف جعلت السيارة تعلو وتهبط كل مترين تقريباً، رافقنا مع صراخ ابنتي وتذمري صوت طائرة زنانة، حتى ظننت أنها تلاحقنا. وصلنا أخيراً، دخلت زوجتي لمرافقتها، ووقفت مع صهري في الخارج ننتظر، زحام كثيف أمام الباب، مرضى كثيرون وجرحى، صحافيون ومواطنون ينتظرون ذويهم، وجوه ذابلة وعيون منكسرة، مرت ساعة قلقة، صوت الزنانة الذي يقترب ويعلو لا يفارق المكان، حديث السائق الذي أوصلنا وغادر بسرعة صار يقيناً، هذا المستشفى مستهدف، أوعزت لصهري أن يغادر المكان، بحجة شراء حليب أطفال وأشياء أخرى للمولود، دقائق وسمعت صوت انفجار قريب هز المكان، فتات الحجارة وصل بوابة المشفى حيث أقف، سقط على رؤوس المحتشدين أمام الباب. المكان قريب جدا إذاً ، دقائق أخرى حتى داهمنا صوت رجل ملهوف صارخ يدعو لإفساح الطريق، وصلت عربة نقل صغيرة تحمل امرأة وابنتها الرضيعة، وشاباً في العشرين، كانوا ينزفون وفي حالة إغماء، أمامهم يركض الرجل في حالة هيستيريا: «مات أولادي.. ماتوا».

لم أتبين من نُقل من المصابين إلى الداخل، كنت أتابع الرجل المكلوم الذي يلطم وجهه، ويسب كل شيء. ينظر ناحية المرأة ورضيعتها وهم ينقلونهما للداخل، وينظر خلفه وكأنه ينتظر شيئاً ما مرعباً يلاحقه، حين ظهر ما ينتظره هبط على ركبتيه وحمل تراباً وعفر به رأسه، وصلت عربة يجرها حمار تحمل ثلاثة موتى، كانوا أبناءه، اثنان متجاوران مستلقيان على ظهريهما والثالث على بطنه متعامداً فوقهما، أحضرت النقالات وحُملت الجثث إلى الداخل، مروا من أمامي، مروا من المسافة التي تفصلني عن الرجل الذي ينوح ويصرخ ويسب كل شيء، ثيابهم مدماة ومتربة، حفاة، عيونهم مفتوحة على بياض تام، أحدهم مبتور الساق، والثاني مصاب في بطنه، مسح الأب على رأس الابن الأصغر حين مر أمامه، قال يسأله: «مت يا مصطفى؟ مت يا مصطفى؟ معلش يابا. معلش». ثم لحق بهم إلى الداخل.

تبين من صراخ الرجل أنهم نازحون، عادوا إلى منزلهم في منطقة المخيم الجديد الذي جرى إخلاؤه سابقاً، فقصفتهم إحدى الزنانات، الرجل يعمل بائعاً للخضراوات ولا علاقة له بشيء. الممر الذي أتاحه المزدحمون أمام الباب سرعان ما عاد لحالته، وسرعان ما عاد كل واحد منهم لمشاغله، أنا أيضاً تذكرت ابنتي وشرعت في الدعاء لها كي تلد بالسلامة.

في الساعة الثامنة، كان الظلام قد حل، والشوارع فارغة تماماً، ولم يكن أمام المستشفى سواي وصهري ورجلين آخرين وسائق سيارة، وما زال صوت الزنانة متواصلاً، أضواء شحيحة تنبعث من الداخل تؤنس المشهد الكئيب. قبل ساعة، أبلغتني زوجتي أنني صرت جداً لحفيدة جميلة، وأن الأطباء أبلغوها بضرورة اصطحاب ابنتي ومولودتها والمغادرة فوراً، حيث ينتظرون مزيداً من الجرحى ولا مكان لراحة الأم التي وضعت للتو. ساعة كاملة تجري زوجتي محاولات مستميتة لابقاء ابنتها في المشفى ساعات قليلة أخرى من دون جدوى، وأنا وصهري نهرول في الشوارع نبحث عن سيارة لنحملها إلى البيت من دون جدوى. في الساعة الثامنة، وجدنا سيارة مصطفة ومضاءة من الداخل، يبدو أن السائق داخلها، شرحنا له المشكلة، وعلى غير توقعنا، لم يتردد ولم يفاوض على الأجرة: «اللي تدفعوه»، هكذا قال. في طريق عودتنا، كانت ابنتي في حالة إعياء شديد، تحتضنها أمها، وصهري يتعجل السائق المبتسم الهادئ، قال له سيارتك الوحيدة في الشارع الآن وهذا سبب جيد لكي يقصفنا صاروخ ما. انشغلت بترديد الأذان في أذن حفيدتي بينما السائق اللامبالي يشرح لنا ببرود كيف أن بيته قد قصف في أيام الحرب الأولى، وأنه فقد أسرته بكاملها، وأن السيارة التي يقودها الآن هي كل ما يملك، هي عمله ورزقه وبيته الذي ينام فيه.

البيوت المجاورة ستهتز معه كشجر، وتعلو المكان سحابة من الغبار الأسود، هو صوت انهيار المنزل المُنذَر

اليوم الثاني والسبعين بعد المئة

حصلنا اليوم فقط، وللمرة الأولى منذ بداية الحرب، على دجاج مجمد، وشعرت بتراجع قليل لأسعار بعض السلع، السكر والأرز مثلاً، الخبز متوفر بسعر معقول، غير أن الخضراوات ما زالت نادرة، أنواع قليلة وغالية الثمن. ما زالت الفاكهة مفتقدة تماماً بكل أنواعها، غاز الطهي هو الكارثة الكبرى التي أنهكتنا تماماً، منذ أكثر من إسبوعين، ونحن نشعل الحطب لكل شيء، لتسخين الماء للإستحمام، لطهي الطعام، حتى لو أردنا تجهيز كوب من الشاي لضيف متعجل. لا غاز في رمضان الكريم، الحطب الذي توفر لنا نفد تماماً، ولم يعد لدينا أي شيء يمكن إشعاله بعد أن قمنا بإشعال رفوف المكتبة المحطمة والكتب وأخشاب الكراسي المتفتتة بفعل القصف. سبب لي ذلك غصة وأسى لا يحتملان. لا أعرف ماذا سأفعل غداً لتجهيز طعام الإفطار. الإنترنت أيضاً غير متاح، ونضطر لممارسة حيل وتدابير مرهقة للتواصل الشحيح، يجلس البعض على حجر في الشارع لتلقف النذر اليسير من الإنترنت، أو ربما نحتاج للذهاب إلى النصيرات أو دير البلح والجلوس في مقهى خاص وفي ساعات معينة أيضاً. حل مشاكل الغاز والحطب وتوفير المواد التموينية وتأمين المياة لا يترك لنا من ساعات اليوم أي متسع للتفكير في ترف التواصل عبر الإنترنت.

مرهق أنا ومتعب وتؤلمني ساقاي ولم أعد أقوم نشيطاً كما كنت للوضوء وللصلاة. أحياناً أقرأ القرآن بصوت مسموع فأشعر بانسجام مع الآيات، ربما أحاول الانفصال عن واقعي اليومي، فلم تعد لدي رغبة في الاتصال بأحد أو الرد على اتصال أحد. أخبار القصف والبيوت المنهارة لم تعد تثيرني، رغم سماع أصوات عنيفة في ساعات متفرقة من النهار والليل، وكذلك صارت أخبار الحرب والمفاوضات تثير تقززي. مؤخراً، أنفقت أكثر من 2300 شيكل لمجرد الحصول على لوح طاقة شمسية متواضع وبطارية مستعملة وبقية تجهيزات توصيل إضاءة متواضعة وتوفير شحن للجوالات، لكي نرحم عبد الرحمن، طالب التوجيهي، من مشاوير الإذلال اليومي إلى المدرسة أو نقاط الشحن مدفوعة الثمن التي قام بها مشكوراً وبلا تذمر أكثر من ستة أشهر. عبد الرحمن يبدو سعيداً وفخوراً ويلازم بشغف كبير قراءة الشحن على عداد البطارية. أمس، أمكن تشغيل شاشة التلفاز لأول مرة منذ بدء الحرب. اجتمعت العائلة أمام الشاشة، تحلقوا واستمتعوا بساعتين من الفرجة التي حرموا منها طوال ستة أشهر، رأيتهم منبهرين بمشاهدة أخبار الحرب على قناة الجزيرة، منبهرين كأنهم يشاهدون اخباراً عن بلد آخر.

29 أيار/ مايو 2024

مخيم المغازي

أمنية مسعود كاتبة

محرر الأخبار إذ ينقطع عن الأخبار

أصوات الانفجارات المتلاحقة، جعلتني أقفز من سريري لا أدري ما الذي حدث فجأة؟! كانت ساعة مرعبة، حيث أقيم في منطقة حدودية شرق مدينة جباليا شمالي قطاع غزة، وهي قريبة جداً من الحدود، خرجنا من المنزل على وجه السرعة بملابس البيت من دون حتى أن أنتعل حذائي، بحثاً عن الأمان في حيّ آخر في جباليا، وحتى أجهزة الحاسوب الخاصة بعملي تركتها ورائي هرباً من الموت المحتم.

ذهبنا الى منزل أختي في جباليا البلد، حاولت استكمال عملي ونشر الأخبار على موقع البوابة «24» الذي أسسته مع زميلتي ميسون كحيل. واصلتُ العمل لأكثر من اثنتي عشرة ساعة في اليوم في ظلّ انقطاع الكهرباء وسوء خدمة الإنترنت، كنتُ أرسل هاتفي إلى أحد الأماكن القريبة لشحنه كي أستكمل العمل، وعندما ينقطع الإنترنت في المنزل، كنت أحصل على بطاقات للإنترنت قدرتها أقل من الإنترنت العادي، لكن كانت تمكنني من إتمام عملي ونشر الأخبار.

■■■

في اليوم الخامس للحرب بدأ القصف يطاول المنزل الذي نتواجد فيه بشكل مباشر، حيث شنّ الطيران الحربي حزاماً نارياً على شرق جباليا، بالتالي دخل الفوسفور إلى المنزل، ونحن في داخله وبدأ يشعر كلّ من كانوا هناك بالتعب، وبدت علينا جميعاً حالة من الإعياء. تنقلنا في جباليا خمس مرات في بيوت أقاربنا، كنا نهرب في كلّ مرة مع اشتداد القصف حولنا، ومع طلب جيش الاحتلال من المواطنين مغادرة شمال غزة توجهنا كما باقي السكان إلى جنوب قطاع غزّة، إذ كانت وجهتنا في البداية إلى خانيونس، حيث يوجد مكتب عمل لأحد أقاربنا، فتوجهت مع عائلتي، كان العدد كبيرا، كنا اثنين وعشرين شخصا صغارا وكبارا. كان شارع صلاح الدين مخيفاً جداً، خرجنا من جباليا وكان القصف مستمراً، مع أحزمة نارية تهز شمال القطاع، شارع يافا الذي كان يضج بالحياة والحيوية أصبح فارغاً تماماً وكان القصف مهولاً على جانبي الطريق، كنا نحن فقط في شارع صلاح الدين. توجهنا إلى خانيونس في البداية تحت القصف حيث كان علينا أن نذهب إلى مكان لا نعرفه ولا نعرف إذا كان به مقومات الحياة أم لا، هل المكان مؤهل للسكن ولهذا العدد الكبير؟! أسئلة كثيرة تخطر على البال دون أن نعرف لها إجابة.

عندما وصلنا إلى خانيونس كانت العمارة التي يوجد بها المكتب مغلقة وكنا في الشارع وحدنا. فصاحب العقار رفض أن يفتح لنا المنزل، قال نحن لا نعرف من أنتم! وهذا يشكل خطراً على العمارة. حاولنا أن نعرّفه بأنفسنا وأننا مدنيون جئنا نلجأ إلى هذا المكتب وأننا نملك المفتاح. لكنه رفض أن نصعد إلى المكتب، وهنا كانت الكارثة، وجدنا أنفسنا في خانيونس وليس لنا أقارب في الجنوب، إذ إن عائلتي الممتدة تتمركز في جباليا وغزة، كنا في حيرة من أمرنا ولا نعرف إلى أين نذهب، والقصف مستمر ومعنا عدد كبير من الأطفال. حاولنا عدة ساعات مع صاحب العمارة من دون جدوى، هنا بدأ الأطفال يشعرون بالجوع، فكانت الأمور صعبة جداً. حاول الجميع التواصل مع المعارف والأصدقاء، في البداية كانوا جميعاً يعتقدون أنها مجرد أيام، وسنعود الى جباليا. استطاع أخي أن يتواصل مع صديق له في مخيم النصيرات كي يجد لنا شقة فارغة، لكن هذا الصديق الأصيل أصرّ على استضافتنا في منزلهم إلى حين انتهاء الحرب. وكنا نفضّل أن نذهب إلى أناس نعرفهم ونعرف المنطقة، فتوجهنا من خانيونس إلى النصيرات يوم الرابع عشر من أكتوبر/تشرين الأول. وصلنا النصيرات وحط بنا الرحال في منطقة قريبة من وادي غزة اسمها المخيم الجديد، كان المنزل ممتازاً وهذا سهّل علينا الحياة، لأننا لا نملك فراشاً، ولا نملك حتى ملابس، لكن كانت الصعوبة في طبيعة الحياة اليومية في المنطقة الحدودية، فبعد قصفها انقطع عنها الإنترنت تماماً، ولا يوجد بها إرسال أو اتصال، وهذا فصلني عن العالم الخارجي، وأعاق ممارستي لعملي، وهذا كان بالنسبة لي أمراً متعباً نفسياً جداً أن أكون في منطقة لا أعرف ماذا يحدث حولي، أين هو القصف؟ ما هي الأخبار؟ وأنا التي اعتادت على متابعة الأخبار وكتابتها على مدار الساعة.

عمل للفنانة الفلسطينية مها الداية

■■■

كان هذا الأمر متعباً جداً، وطبعاً بدأت تفاصيل الحياة القاسية، لا مياه طوال أيام، ننتظر مياه البلدية حتى تأتي، ونملأ الخزانات من السوق السوداء بأضعاف سعرها الحقيقي. كان هناك صعوبة في الحصول على الغاز، نقف في طوابير لعدة أيام كي نحصل على أنبوبة غاز واحدة. بعد فترة، صار هناك صعوبة في الطعام. كان هناك شح في المواد الغذائية، وبدأت الأسعار الفلكية، كنا نحصل على الطعام بصعوبة والمنطقة نائية وبعيدة عن الأسواق، أيضا موضوع الحصول على الدقيق كان صعب جداً، حتى بأسعار مرتفعة جداً.

غادرنا النصيرات مع اشتداد القصف في المنطقة التي نتواجد بها وبتنا نشعر بالخطر بعد أن أصيب أخي خلال وقوفه في طابور تعبئة أنابيب الغاز، ودخول الشظايا الى المنزل الذي نقطن فيه. نزحنا بعد ذلك إلى مدينة دير البلح. طبعاً، كان هناك صعوبة لأننا وصلنا متأخرين بعض الشيء حيث انتقل إليها عدد كبير من المواطنين، ووجدنا صعوبة في الحصول على منزل نستأجره، في البداية استطعنا أن نحصل على شقة في منزل، وطلب منا مبلغاً فلكياً، أربعة آلاف شيكل أجرة شقة فارغة لا أثاث فيها، ولا خدمات؛ لا كهرباء أو ماء، فقط جدران. كان خيار والدي أن يدفع كي نبقى معاً، أنا وشقيقاتي وأزواجهن، وأقاربنا في منزل واحد، لكن للأسف لم نستطع أن نكمل لأن صاحب العقار أخرجنا، لأنّ هناك من دفع له أكثر من الضعف، ولم يكن أمامنا إلا أن نفترق، فلا مكان يستوعب هذا العدد الكبير من الأفراد.

■■■

شقيقي الأكبر توجه إلى رفح حيث أنسبائه، وذهبت شقيقتي الصغرى مع أسرة زوجها إلى منزل أشبه بحوش قديم في دير البلح. واستطعنا نحن مع شقيقي الأكبر أن نذهب إلى عيادة «أونروا» في المدينة. طبعاً الأمور صعبة أن تسكن في عيادة مع نازحين آخرين. العيادة تعمل في الصباح ويأتي لها آلاف المرضى يحملون آلاف الأمراض، فأن تكون في مكان موبوء بالأمراض، كان في البداية صعباً على الصعيد النفسي، لكن هنا يتوفر الإنترنت والكهرباء فعدت إلى العمل فوراً بعد انقطاع قرابة شهرين، والتحقت بعملي في البوابة «24 « كذلك انضممت إلى إحدى الوكالات العربية الشهيرة وبدأت العمل على ملفات كبيرة؛ ملفات إنسانية... عن حياتنا في غزة.

لا مياه طوال أيام، ونملأ الخزانات من السوق السوداء بأضعاف سعرها الحقيقي